واضع اللغة

في الجزء الثاني من المجلّد السابع والأربعين من هذه المجلة مقال لأمين مجمعنا الدكتور شكري فيصل عنوانه : «المصطلح المعرّب وتدريس العلوم بالعربية ـ نحو وجهة نظر أخرى»، لا يجوز أن نمرّ به دون أن نتمهل في قراءته، وإذا كان المجال لا يتسع للإشادة بمحتويات هذا المقال الطريف بحذافيرها فأرجو أن يتسع هذا المجال للوقوف على مقطع منه، وهذا هو المقطع: «إن عند كل إنسان، عالم أو متعلم، طاقة لغوية، والتدريس باللغة الأجنبية يبدّد هذه الطاقة، إننا نجد هذه الطاقة عند العامّة من الناس، عند الصناع والحرفيين الذين يمسكون بالآلة ويديرونها بين أيديهم.. مئات من المصطلحات وضعها هؤلاء الذين يعانون التعبير وتشتدّ حاجتهم إليه فتنطلق به ألسنتهم، إنه ينبثق عندهم انبثاقاً.. إنهم يضعون ويعرّبون ويغمسون اللفظ الأجنبي في حوض عربي، ويمنحونه أحياناً القالب أو الصبغ العربي.. إنهم يقدّمون المادّة الأولى للعلماء والمجامع..»

حسبي الوقوف على هذا الجزء من المقطع لأجعله موضوعاً لخاطر وجيز دون أن اتبسّط في الذي تبسَّط فيه الدكتور شكري فيصل، فقد عالج موضوعه من أكثر النواحي بحيث لم يترك لنا مجالاً على ما أعتقد للقول أكثر مما قال: لقد فطن في الكلام الذي استشهدت به إلى ما لم يفطن إليه إلاّ القليل، فطن إلى جهد العامّة في وضع اللغة، حسبه أنه فطن إلى ما سمّاه: طاقة العامّة اللغوية.

لقد ذكرّني مقال الدكتور شكري فيصل مقالاً كتبه «أناتول فرانس» في كتاب من كتبه الأربعة: الحياة الأدبية، فقد طالع كتاب: «دار مستتر» وعنوانه: حياة الألفاظ، فمضى له قول في هذا الكتاب أرجو أن استرشد ببعض ما جاء فيه.

يرى «فرانس» أن الشعب هو الذي يضع اللغة، وقد كان «فولتير» على غير هذا الرأي، فمن المحزن في نظره أن نرى في موضوع اللغات وفي موضوع أمور ثانية أعظم شأناً أن الرعاع هم أوّل من يسوق الأمة في هذا السبيل.

أمَّا (أفلاطون) فقد كان يقول بغير هذا الرأي، كان يقول إن الشعب في موضوع اللغة إنما هو أستاذ من الطراز الأول، وأناتول فرانس على هذا الرأي، فهو يرى أن الشعب يصنع اللغات صنعاً جيّداً، فهو يصنعها ذات تصاوير، إنه يصنعها واضحة، حيّة، مؤثّرة، ولو صنعها العلماء لكانت اللغات ثقيلة، إلاّ أن الشعب لا يعنى بالنظام، فليس له فكرة الأسلوب العلمي، إنه يكتفي بالغريزة، فهو يخلق ما يخلق بالغريزة، إنه لا يضيف إليها التفكير.

لا أريد التوسّع في هذه الاستشهادات وإنما الذي أريده إنما هو تأكيد ما قاله الدكتور شكري فيصل من أن للعامّة طاقة لغوية، إني أعيش في قرية من أربعين سنة، وأنا أسمع في لغة أهل هذه القرية ألفاظاً لا أسمعها في دمشق، إنهم لا يعجزون عن التعبير عن أفكارهم وعن توليد مصطلحات غريبة سواء أكانت مطابقة للغة أم غير مطابقة، فإذا جاء تشرين الأول قالوا: تشرنتْ، وإذا أراد أحدهم أن يضع التراب على سطح داره أو على غير السطح قالوا: ترَّب، وإذا أصيب أحدهم برائحة الكاز قالوا: كيز، إلى كثير من هذه التعابير الغريبة. وقد نجد في المدن

كثيراً من مثل هذا التصرف، والألفاظ التي ولدتها العامّة في هذا السبيل غير قليلة، فالتجّار كانوا يستعملون في مصطلحاتهم قولهم: تيّلونا، أي أرسلو إلينا تلغرافاً، فاشتقوا من كلمة التلغراف الأعجمية لفظة: التيل، ثم اشتقوا الفعل وهو:تيّل، إلى أن ارتقت اللغة فحلّت لفظة: أبرق محلّ اللفظة، تيّل، ومن هذا القبيل قول الناس: تلفن أي خاطب بالتلفون ثم حلّت لفظة الهاتف محلّ التلفون الأعجمية، وما ذكرت ما ذكرت إلاّ على سبيل الاستشهاد.

وليس معنى هذا أننا ينبغي لنا أن نفسد اللغة، فلو فعلنا ذلك، معاذ الله، لجعلنا لغتنا الكريمة فوضى تنتقل ألفاظها بين سنة وسنة من طور إلى طور، بحيث إذا مضت بضع سنين فإن الأحفاد لا يفهمون كلام الأجداد، وإنما الذي أريد الإشارة إليه أن الشعب لا يعجز عن تليين اللغة وعن وضع الألفاظ التي يحتاج إليها، وهذا ما أشار إليه الدكتور شكري فيصل في مقاله الفيّاض.

لقد تتبعت طائفة من بقايا الفصاح، تتبعت طائفة من هذه الألفاظ التي استفاضت في العامّة وأصلها فصيح، ماذا رأيت في هذا التتبع؟ لقد اهتديت إلى كثير من قدرة العامّة في اللغة، ومن تصرفها في أمور هذه اللغة، فهي تحوّل معاني الألفاظ عن وجه إلى وجه، تارةً تحولها عن أفق ضيق إلى أفق أرحب، وتارة تعكس الأمر فتصرفها عن وجه رحب إلى وجهٍ ضيِّق، وحيناً تقلب معاني الألفاظ إلى أضدادها أو أنها تنقلها من الحقيقة إلى المجاز، إلى غير ذلك من المذاهب التي تذهبها العامّة في اللغة. ومعجماتنا لا تعنى على ما أظن بلغة العامّة، على أن هذا الأمر ليس هو وحده الذي تفتقر إليه معجماتنا، فإنّا نجهل ميلاد الألفاظ، كيف نشأ اللفظ الفلاني في صدر أمره، وكيف انتقل على توالي الأحقاب من شكل إلى شكل حتى صار إلى ما صار إليه من الكمال.

كيف نشأت لغتنا؟ إذا استطاع كاتب بليغ مثل «أناتول فرانس» أن يجعل صلة بين الأرض وبين اللغة، إذا استطاع أن يقول إن اللغة ولدت في الريف، وإذا كانت المدن قد أضافت بعض الشيء إلى حسنها وروقتها فإن اللغة تستنبط كل قوتها من الريف، إذا استطاع أن يقول مثل هذا القول فهل نستطيع أن نقول إن لغتنا ولدت في الريف؟ هذا أمر يرجع الجزم به إلى علماء اللغة وحدهم، ولست منهم في شيء.

تخضع اللغة لكثير من قوانين الطبيعة فإن العالم الفرنسي «دار مستتر»يطبّق على الألفاظ قوانين النشوء والارتقاء، فالفكر البشري لا ينقطع عن تغيير هذه الألفاظ وفقاً لمذهب تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي.

كم تكون لذتنا عظيمة إذا استطعنا أن نردّ الألفاظ إلى أصولها كما فعل «أناتول فرانس» والعالم «دار مستتر»، إنهما يقفان على لفظ فرنسي فينبّهان على صلته بلفظ لاتيني، أو إنهما يقفان على تعبير فيرشدان إلى صلة هذا التعبير بالأرض التي ولد فيها، هذا مالا نجده في مجتمعاتنا.

غير أني كدت أنحرف عن جوهر الموضوع وهو قدرة العامة على اللغة، فالألفاظ على نحو ما قال «دار مستتر» تحتفظ بالطابع الأول الذي خلقه فيها الفكر البشري، إن الناس تتسلسل ذريَّاتهم فيأخذون عن الذين سبقوهم تقاليد التعبير والأفكار والصور، وينتقل هذا كله إلى الذين سبقوهم، وعلى هذا نستطيع أن نقرأ تاريخ العرب كله في معجم عربي كما يقرؤون تاريخ فرنسة في معجم فرنسي.

لقد استخرج «أناتول فرانس» من هذا الموضوع نتيجة لا بأس بأن أختتم بها المقال، فهو يرى أن الناس يتخاطبون ليتفاهموا، ولذلك فإن

الاصطلاح إنما هو القاعدة المطلقة في أمور اللغة، فلا العلم ولا المنطق يستطيعان أن يفوقا هذا الاصطلاح، فالإفراط في حسن التعبير إنما هو إفراط في سوء التعبير، فإن أحسن الألفاظ في العالم إنما هي أصوات لا فائدة فيها إذا كنّا لا نفهمها.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٣

العلم والشعر يلتقيان

لما انحدر رجال الفضاء من الأفق الأعلى إلى الأفق الأدنى، من السماء إلى الأرض، وملأت أنباؤهم أرجاء العالم، وشغلت رحلتهم عقول البشر، كثرت في بعض المجالس هذه السؤالات: ما هي قيمة الشعر إلى جنب قيمة العلم؟ ماذا يستطيع الشعراء أن يعملوا إلى جنب ما يعمله العلماء من أعمال تفوق كل تصور!

لا شك في أن الإنسان يصيبه لأول وهلة ما يشبه الذهول بعد سؤالات من هذا الشكل، حتى يكاد يفقد كلّ إيمان بالشعر وكلّ ثقة بالشعراء، إلاّ أن هذا الذهول لا يلبث أثره أن يذهب بعد قليل من صحو العقل واستفاقة الذهن، لا يلبث الرجل بعد سؤالات من هذا النوع أن يرجع إلى صحة التمييز فيعرف للشعر قيمته دون أن ينكر ما للعلم من قيمة.

من أقوال «باستور»: في كل واحدٍ منّا رجلان: الرجل العالم الذي طرح ناحية ما ورثه من ألأفكار ولجأ إلى العيان والتجربة والتفكير حتى يرتفع إلى معرفة الطبيعة؛ والرجل صاحب الحسّ، رجل التقليد، رجل الإيمان والشك، رجل العاطفة، الرجل الذي يبكي من فقده ولده وهو لا يستطيع، ويالللأسف، أن يقيم البرهان على أنه سيراه مرّة ثانية، ولكنه يعتقد هذه الرؤية أو يأملها، الرجل الذي لا يريد أن يموت كما تموت الجرثومة.

هذان عالمان مختلفان، ويا بؤس للذي يريد منهما أن يعتدي على الآخر!

إذا جاز لنا أن نتصرف في أقوال«باستور» قلنا إن العالم لا يستغني عن هذين الرجلين، رجل العقل وهو العالم، ورجل العاطفة وهو الشاعر، فالعالم يدأب بياض الصبح وسواد الليل في الاهتداء إلى الحقيقة المجهولة، والشاعر يلقي ضياءً من قلبه على ما يحيط بالبشر من عالمٍ ملآن من الآلام حتّى يخفف من مصائبه وحتّى يحوّل جهنّم إلى جنات عدن.

لا شك في أن البشرية لا تستغني عن العلماء الذين نقدّسهم تقديساً لا غاية بعده، إن لهم أهدافاً سامية يسعون إليها، فهم يخلصون المحبة لعلمهم فيعملون في مخابرهم وقد تسوء صحتهم من عملهم، ومع ذلك فإن عقولهم لا تنفكّ تمتدّ إلى المعجزات، إنهم يبحثون عمّا يضيء عقول البشر وعمّا يشفي الناس من عللهم دون الالتفات إلى الآلام التي تأكل أجسامهم ببطء، فكم من عالم قضى في سبيل بحثه وتنقيبه، إما بسبب إشعاعات تعمي، وإما بسبب جراثيم تقتل، وإما بأسباب ثانية تتصل بالكشف عن أسرار الطبيعة، وإذا كانت صناعتهم قاسية في حين وقتّالة في حين آخر، فإنها على كل حالٍ صناعة جذابة!

فإذا كنّا نحني الرؤوس إجلالاً للعلماء الذين يخدمون البشر بعقولهم الراجحة أفما ينبغي لنا أن نملأ القلوب من محبة الشعراء الذين يخففون من ويلات النفوس بخيالاتهم اللطيفة؟

إنا نعتقد أن نفوس البشر تحتاج إلى العواطف احتياج الأجسام إلى الحرارة؛ فالرجل الذي لا تملأ العواطف قلبه ولا تدفئه حرارتها يعيش عيشة يزدحم عليها الحزن والكآبة، فهو عاجز على أن يقوم بأي عمل

عظيم أو بأي عمل صالح، فمن الواجب علينا أن نحتفظ بهذه النار المتأججة، نار العواطف، وأن نتعهدها فإنها محور حياتنا الأدبية. كلُّ الأدب على ما نظن قائم على تصوير قلب الرجل أي على دراسة عواطفه وأهوائه، وعلى ما تفضي إليه هذه الدراسة من العواقب،ونعتقد أن الشعراء أقدر الناس على مثل هذه الدراسة. ماذا فعل «شكسبير» في شعره؟ إنه اجتاز في رأي «موروا» أزمة تقرب بعض الشيء من أزمتنا، فصرخ صرخات فيها الغضب والاشمئزاز وهي أرعب صرخات نجدها في تاريخ الأدب، فلا يستطيع أحد أن يعرف مظاهر الحياة ومظاهر الأهواء على نحو ما عرفها «شكسبير» لأنه عاش وأحسّ بالألم، لقد ذاق أمرَّ العذاب والألم ثم نجا من عذابه وألمه في آخرحياته بعزلته في الأرياف بين الحقول والطيور والفلاحين، حيث وجد وحدة الحياة السعيدة بين ظهراني أهله، وهنا جاءته الرؤيا الإلهية فكانت هذه الرؤيا حلاً لكل مشكلاته، ولم يكن حلاً مجرداً، ولم يكن فلسفة ذات شكل معيّن، ولكنه كان رؤيا ، لأن الشعر وحده هو الذي يحلّ مشكلات العقل.

لا ندري كيف تكون الحياة لولا الشعر، أفلا تملأ الكآبة حينئذ كل جانب من جوانبها؟ وإذا جرّدت الحياة من سلطان الشعر، أفلا يتعطل جزء كبير من نفوسنا؟ أفلا تنام ملكة الحسّ في أعماق قلب قاس مقفرٍ؟ أفلا تحرم نفوسنا نصيبها من لذة الألوان والأصوات؟ فلو لم يكشف لنا الشاعر عمّا يستر الطبيعة من مختلف الحجب لما نعمت أعيننا بصور هذه الطبيعة ولما أخذت آذاننا نصيبها من أصواتها وألحانها.

لا ندري كيف تكون لغتنا وأفكارنا لو لم يزيّن الشعراء هذه اللغة وهذه الأفكار بسحر صورهم وفتنة خيالاتهم، إن لغة العاطفة لا تبتلّ إلا

بأنفاسهم؛ ولا تندى إلا بابتساماتهم، فنحن لا نحب إلا إذا ازدحمت على عواطفنا ألحان الشعراء وتصاويرهم، فقدّست هذه العواطف وعظمتها، فلو كانت الحياة متوقفة على العقل وحده في هذا العالم، لو كانت الحياة مجردة من العواطف ولغتها لانتهت آجالها من زمن بعيد، فالشعراء على نحو ما قال أناتول فرانس «هم الذين يلقون الضياء، في الوقت الذي يلقون فيه الكلام، على أفراحنا المبهمة وعلى آلامنا الغامضة، فهم الذين يقولون لنا ما نشعر به شعوراً ملتبساً، إنهم أصوات نفوسنا، بوساطتهم ندرك الإدراك كلّه مسراتنا ومضاجرنا»

لا ندري كيف نشعر بمحاسن الطبيعة لو لم يحملنا الشعراء على إدراك هذه المحاسن، ما أعظم الفرق بيت نظرة العالم إلى الطبيعة وبين نظرة الشاعر إليها، يحبس عالم من علماء النبات نفسه على دراسة نوع من هذا النبات فيبحث عن غذائه وتنفسه ونموّه وما شابه ذلك بحثاً علمياً مجرداً من الصور والألوان والألحان، أما الشاعر فإنه يرى في النبات مالا يراه العالم، ماذا رأى البحتري في الطبيعة؟ لقد تغنى بكل منظر من مناظرها، تغنى بالربيع وهو ينمنم وشي حلتها الخضراء، وبالخريف وهو ينسج لها حلتها الصفراء، واستوفت عينه حظّها من رباها، وقد صبغها الليل بلونه الأسود، ومن آفاقها، وقد اختضبت بالصباح الورد، وتملّت أذنه قسمها من هديل حمامها وحفيف ورقها وضجيج بحرها وزجل رعدها، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وزعفرانها وأقحوانها، ولقد ملأ نفسه من كل جزء من أجزاء الطبيعة، من ذهب شمسها وفضّة مائها واندفاق غيثها في غداة مخضلّة أو عشيّ مبتل.

لقد نظر رجل العلم إلى كل ما نظر إليه البحتري أو غيره من

الشعراء، إلا أن العالم لم يهتم في الطبيعة في مجامع مظاهرها إلا بالقوانين التي يهتدي بها إلى معرفة خصائصها وأسرارها، متوخياً في هذا كله الوصول إلى الحقيقة التي تكشف عن هذه الخصائص والأسرار، أمّا الشاعر فإنه يرى من وراء هذه الحقيقة عالماً ملآن من الجمال، يرى من ورائها ما يسر به حسه وذوقه وشعوره، فالبحتري نظر إلى الأقحوان كما نظر إليه عالم النباتات، ولكنه لا يرى ضحك الأقاحي في الصباح إلا رأى من وراء هذا الضحك رضاباً بارداً، والبحتري نظر إلى الشمس كما نظر إليها عالم الفلك ولكنه لا يرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى في أضعافه جنوح حبيبته لوشك بعد أو فراق.. وهكذا فإن الشاعر ينظر إلى الطبيعة من زاوية تختلف عن زاوية العالم، إنّ رجل العلم يهمه من هذه الطبيعة الكشف عن حقيقتها أمّا الشاعر فالذي يهمه منها إنما هو الكشف عن جمالها وحسنها، فالطبيعة تشتمل في نظر العالم على صور ترضي عقله، ترضي بحثه وتنقيبه، أما الشاعر فإن الطبيعة تشتمل في نظره على صور ترضي عينه وأنفه وأذنه، فلا يجد معنى لتنفس الروض في جنح بارد من الليل إلا إذا ذكره هذا التنفس أنفاس حبيبته، ولا يجد معنى لترقرق الندى فوق الشقائق إلا إذا ذكره هذا الندى دموع التصابي في خدود الأحباب، ولا يجد معنى للمعان البرق إلا إذا ذكره هذا اللمعان ابتسامة من الابتسامات.

فإذا كان العالم يبحث في الطبيعة عن الحقيقة وإذا كان الشاعر يبحث فيها عن الجمال، فإن البشرية في حياتها محتاجة، إلى هذين النوعين من البحث، فلا غنى لها عن الحقيقة كما لا غنى لها عن الجمال.

على أن العالم الذي ينقب عن الحقيقة لا مندوحة له في تنقيبه عن

بعض ما يحتاج إليه الشاعر، لقد قال أحد الكتاب في «باستور» إنه رزق من صفة المبتدع النصيب الأوفى وهو الخيال، فلم يقف به هذا الخيال عند منتهى تنقيبه وبحثه ولكنه رمى به إلى أبعد من ذلك، حتى كشف آفاقاً جديدة وتنبأ بالمستقبل وشعر بحقائق هذا المستقبل قبل غيره، فكان فكره شبه شعاع المنارة الذي يضيء الطريق لمن يجيء بعده.

هذا الرجل رجل المخابر، رجل التجارب، إنه متنبئ إنه شاعر!

ولسنا نعتقد أن الذين انصرفوا إلى الكشف عن أسرار الفضاء في السنين الأخيرة يقنعون بما وصلوا إليه في المعرفة، إن خيالهم المبتدع نفسه يشبه خيال الشعراء، فهو سيدفعهم بعد اليوم إلى هذا السؤال: ماذا بعد الفضاء، ماذا بعد القمر؟ ماذا بعد الكواكب كلّها؟ فإن عقل البشر الذي يخضع لقوة لا سبيل إلى التغلب عليها لا ينفك يسأل هذا السؤال: ماذا وراء هذا كله؟ فالخيال يدفعه إلى الكشف والابتداع، فإن العقل لا يريد أن يقف عند حدّ من حدود الفضاء والزمن، لأن هذا الوقوف لا يشفي غليل العالم فلا شيء يستطيع أن يسكت صوت تطلع العلماء.

نظن بعد هذا كله أن الشعر لا يحتاج إلى إقامة الدليل على قيمته في الحياة على الرغم من قيمة العلم السامية، ومهما نقل في الشعر فلا نستطيع أن نوفيه حقّه أكثر ممّا وفاه بعض أدباء الإنكليز في قوله:

«حقاً إن الشعر إنما هو شيء إلهي، إنه في وقت واحد دائرة معارفنا ومركزها، إنه الشيء الذي يشمل العلوم كلها والذي ينبغي لكل علم أن يرجع إليه، إنه في وقت واحد ينبوع كل مقاييس الفكر وزهرة المقاييس كلها، إنه مصدر كل شيء وزينة كل شيء.

كيف تكون الفضيلة والحب والوطنية والصداقة؟ كيف تكون زينة هذا العالم الجميل الذي نسكنه؟ كيف يكون عزاؤنا على جوانب القبور؟

كيف تكون آمالنا وراء هذه القبور؟ كيف يكون هذا كله لو لم يأت الشعر فيجلب لنا الضياء واللهيب من تلك العوالم الخالدة التي لا تجرؤ قوانا على أن تطير إلى آفاقها بأجنحتها؟!».

هل بنا حاجة بعد هذا كله إلى أن نقول: ما قيمة الشعر إلى جنب قيمة العلم؟ أفلم نر أنّ العلماء يحتاجون في ابتداعهم إلى الخيال؟ فهل من مبالغة في القول إذا قلنا إنّ العلم والشعر يلتقيان؟!

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق تموز ١٩٧٣

رأيان
متباعدان متقاربان

رحم الله الأستاذ الرئيس «محمد كرد علي» فقد مهَّد لنا سبيلاً في كتابه : «أمراء البيان» إلى التمتع من بلاغة البلغاء، في وقت اشتدت فيه الحاجة إلى مثل هذا التمتع، إنما نمر بكثير من أقوال هذا العصر فما نعرف لهذه الأقوال صلة بلغة العرب، وإذا كان لكل عصر لغة فلسنا نعرف لبعض لغة هذا العصر وجهاً من الوجوه،ة لا هي عربية ولا هي أعجمية، وقديماً كان البلغاء من الشعراء والكتاب يخترعون لعصورهم لغة تناسب تلك العصور، ولكنهم لم يخرجوا في هذا الاختراع عن جوهر لغة العرب ولا انحرفوا عن محاسن ذوقها، أما اليوم؛ فلم يعد لهذا الجوهر ولهذه المحاسن أثر.

رحم الله الأستاذ الرئيس، فقد انتخب لنا من بلغاء العرب جملة صالحة من كلامهم نصفي بها أذواقنا ونقوِّم بها بياننا، ولست في حاجة في هذا المقام إلى التنويه بفضل تحليله لما وقع عليه اختياره من أمراء البيان، أو إلى التنويه ببراعة تصويره لعصورهم، وإنما كل همي التنويه بهذا الكلام البليغ الذي انتخبه لنا حتى نبقى على صلة ببلاغة العرب على تراخي الأحقاب.

من أمراء البيان الذين جاء ذكرهم في كتاب الأستاذ الرئيس: ابن

المقفع والجاحظ، وإليهما تناهت بلاغة العرب على ما أعتقد ويعتقده كثير من الأدباء، ولقد أحببت في هذا المقال أن استشهد برأيين لهذين الإمامين العظيمين في حفظ الكلام الحسن، وما يهمنا أن يتباعد هذان الرأيان في الظاهر ويتقاربا في الباطن،بقدر ما يهمنا تنبيه ابن المقفع على الاقتداء بالصالحين من البلغاء وتنبيه الجاحظ على الابتداع والاختراع.

قال ابن المقفع:

«ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلَّم به في موضوعه على وجهه فلا يرينَّ عليه في ذلك ضؤلة، فإن من أُعين على حفظ قول المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووفُق للأخذ عن الحكماء، فلا عليه ألا يزداد، فقد بلغ الغاية، وليس بناقصه في رأيه ولا بغائضه في حقه أن لا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه».

هذا ما قاله ابن المقفع في أخذ الكلام الحسن، ولننظر بعد ذلك في قول الجاحظ في هذا الباب، قال أبو عثمان:

«ومتى اتّكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال، وعلى السرقة والاحتيال لم ينلْ طائلاً وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة، والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بعينها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل ثم يودُّ أن يعدَّ لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً، وخائفاً سروقاً، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه، متكلّفاً لمعانيه، مضطرب التأليف، متقطع النظام، فإذا مرَّ كلامه بنقّاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفُّوا عقله وبهرجوا علمه. ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج، وحيث ما وقع فهو مذموم، وهو في الظرف أسمج، وفي البلاغة أقبح، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ

مسموعة من فمه، مسرودة في نفسه، ولم تكن مخلَّدة في كتبه».

وقد لخَّص الأستاذ الرئيس كلام الجاحظ بقوله: ومعنى قوله هذا أن خير الكتّاب من لم يستظهر ألفاظاً بعينها ليكرهها على الاندماج في تراكيبه.

أما وقد فرغنا من الاستشهاد بكلام إمامين عظيمين من أئمة البلاغة فلننظر بعد ذلك في تباعد هذا الكلام وتقاربه.

رأي ابن المقفع في أخذ الكلام الحسن وحفظ قول المصيبين والاقتداء بالصالحين والأخذ عن الحكماء واضح لا غموض فيه، فابن المقفع لا يرى في هذا كله نقصاً في الرأي، وما أظن أن الذين تمرَّنوا على منظوم القول ومنثوره قد أهملوا حفظ ما يستحسن من هذا المنظوم وهذا المنثور، فإن مثل هذا الحفظ مادة يستعينون بها على الإفصاح عن خواطرهم والإعراب عن أفكارهم، وعلى قدر جودة المحفوظ وحسن الاختيار يكون التبريز في مجال البلاغة. وليس معنى هذا كله أن يحفظوا كلام غيرهم وينسبوه إليهم، غير أن المفردات المحفوظة قد تكون على كثرة الاستعمال وحسن التصرف ملكاً لمن حفظها، إذ إن حافظها يتصرف فيها على قدر ما يوحي به إليه ذوقه، فهي وإن كان قد أخذها عن غيره إلا أنه لم يستعملها كما استعملها غيره، فقد يحولها عن وجه إلى وجه حتى تصبح بعد هذا التحويل ملكه الخاص، وحتى تنسب إليه فيكون هو صاحبها، فلولا حفظ المستحسن من كلام البلغاء لما استطاع شاعر أو كاتب أن يخوض في باب من الأبواب، فهو ينظر في كلام البلغاء فيعلق بذهنه من هذا الكلام ما يعلق ثم يتصرف فيه على كثرة الاستعمال حتى يصبح أنه هو الذي اخترعه، وفرق كبير بين هذا العمل وبين أخذ كلام بعينه وإدماجه في شعر أو نثر على حالته دون

زيادة أو نقصان، فإن مثل ذلك إنما هو سرقة والسرقة مذمومة في كل حال، ولقد جرى كثير من الشعراء والكتّاب على أخذ الكلام الحسن، فتصرفوا فيه أبرع تصرف فما رماهم رام بسرقة، لقد حفظوا ما حفظوا من كلام البلغاء ثم نسوه بعد حين، ولكنهم لم ينسوه إلا بعد أن تصرفوا فيه على وجه جديد حتى نُسي صاحبه القديم وعرف بصاحبه الحديث.

وإذا كان ابن المقفع لا يرى نقصاً في أخذ الكلام الحسن عن المصيبين والصالحين والحكماء فإن الجاحظ يرى في مثل هذا الأخذ شيئاً من السرقة والاحتيال، فهو يريد الاختراع، يريد أن تكون الألفاظ مسموعة من فم صاحبها، مسرودة في نفسه.

ولكن هل من تباعد بين هذين الرأيين، لا ريب في أن التباعد ظاهر ولكنا إذا تعمقنا في التدقيق وجدنا تقارباً في قول ابن المقفع وقول الجاحظ، فابن المقفع لا يرى نقصاً في أخذ الكلام الحسن، إلا أن هذا الكلام إذا أخذه كاتب أو شاعر تصرف فيه على نحو ما تقدمت الإشارة إليه حتى أصبح ينسب إليه، فإن الألفاظ في الأذهان تتزاوج إذا صح هذا التعبير، وفي نظير هذا التزاوج تتبين مقدرة الكتاب والشعراء، تتبين مقدرتهم في إضافة لفظة إلى لفظة، أو صفة إلى موصوف، أو في تحويل لفظ عن وجه إلى وجه، أو في غير ذلك من التصرفات التي تظهر فيها عبقرية الكتاب والشعراء، وإذا كان الجاحظ يحث على الاختراع أفنرى سبيلاً إلى مثل هذا الاختراع دون حفظ طائفة من كلام البلغاء، فإن هذا الحفظ إنما هو أساس كل اختراع، فكيف يخترع الكاتب أو الشاعر إذا لم يملأ ذهنه من مادة سابقة، فإن كثيراً من الشعراء الذين كانوا يقلدون في بدء أمرهم من أعجبهم شعرهم وفتنوا به ما لبثوا بعد أن حفظوا ما حفظوه من شعر المعجبين بهم أن تخلّوا عن تقليدهم

وذهبوا في شعرهم مذهبهم الخاص الذي عرف بهم، وفي مقدمة هؤلاء على ما أظن المتنبي، فقد كان في صدر أمره يقلد أبا تمام في بعض شعره، وربما كان يحفظ بعض كلامه، ثم زهد في التقليد وتصرف في المحفوظ فأصبحت له طريقة خاصة عرفت به وعرف بها حتى ملأ الدنيا وشغل الناس بهذه الطريقة.

وتلخيص القول: لا بد من أخذ الكلام الحسن عن المصيبين والصالحين والحكماء حتى يكون هذا الكلام بعد حسن التصرف مادة لكل اختراع، وفي هذا الوجه نرى تقارباً باطناً في رأي إمامين عظيمين من أئمة البلاغة وهما ابن المقفع والجاحظ، وإن كنا نرى تباعداً ظاهراً في هذا الرأي، وكيف كان الأمر فالذي يستنبط من كل ما تقدم أنه إذا كان إمام مثل ابن المقفع يحث على حفظ كلام البلغاء، وإذا كان إمام مثل الجاحظ يحث على الاختراع، وقد عاشا في عصر وصلت فيه البلاغة إلى أبعد آفاقها فكيف يجوز لنا أن نقصر في هذا الحفظ وفي هذا الاختراع في عصر بعدنا فيه كل البعد عن بلاغة العرب حتى أصبحنا لا نجد لهذه البلاغة أثراً في كلامنا.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق نيسان /١٩٧٤

لغة الشدياق

إذا عدَّ الكتاب الذين أولعوا بلغة العرب في القديم والحديث وغاروا عليها ودافعوا عنها حتى امتزج هذا الولع وهذه الغيرة وهذا الدفاع بلحم كل واحد منهم وعظمه ودمه، بروحه وقلبه، كان الشدياق في مقدمة هؤلاء الكتاب، فقد حمل لواء اللغة كل حياته، فما جاء ذكرها في موطن من مواطن كتاباته إلا أضاف إليها صفة الشرف والجلالة فقال: لغتنا الشريفة لغتنا الجليلة.. إنه يؤمن باتساع هذه اللغة الإيمان كله، فهي في نظره عبارة عن حركات الإنسان وأفعاله وأفكاره، ورأيه في هذا المعنى نظير رأي «أناتول فرانس» في لغته الفرنسية، يرى «أناتول» أن لغته فيها عواطف قومه وأفكارهم وأقوالهم وأفعالهم، فهي روح الوطن ولحمه ودمه.

أجل آمن الشدياق بسعة لغة العرب وكثرة مفرداتها، ولقد أشار إلى هذه السعة في ذكره هوى من أهواء النفس وأريد به العشق، فقد طالع شرح المشارق لابن مالك في مراتب العشق فرأى أن اللغة العربية شرك للهوى، إذ يوجد فيها من العبارات الشائقة، المتصببة مالا يوجد في غيرها، بخلاف لغات العجم فإنها لا يوجد فيها إلاَّ لغة واحدة بمعنى المحبة يطلقونها على الخالق والمخلوق.

ومن أجل ولع الشدياق بلغة العرب سخر من الذين يجهلونها من قومه أشدَّ سخرية، وندد بهم وبلفظهم، من هذا القبيل سخريته من التجار

في عصره الذين كانوا يكتبون: لق بدلاً من : لا، وقمضة بدلاً من: إمضاء وخصارة بدلاً من : خسارة حتى قال مرَّة:

«نعم، إن التاجر لا يطلب منه أن يكون شاعراً أو رئيس ديوان الإنشاء، ولكن عار عليه أن يصرف إدراكه في معرفة الثوب الخشن من الرفيع، ويرتدي بلباس الغفول عن أشرف ما ميّز الله به الإنسان عن البهيمة وهو النطق».

وكما سخر من أولئك التجار فقد سخر من كتاب الصكوك في بعض البلاد الإسلامية، ونقد لغة الحكام والفقهاء، ويتبين هذا كله في كتاب رحلته مما يدل على عنايته باللغة وحرصه على سلامتها،ولما زار المتحف البريطاني في «لندن» ودخل دار الكتب آلمه أن لا يذكر عدد الكتب العربية في الفهرس، وحمل ذلك الإهمال على عادة الإنكليز من عدم المبالاة بلغة العرب وإن يكن قد دوّن بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط، ولقد أغراه ميله إلى لغة العرب بالميل إلى كل ماله صلة باللغات عامة، حتى لغة البراهمة.

لقد غلبت عليه النزعة اللغوية فهو يستطرد إلى أمور اللغة في أثناء كتاباته ولم يقتصر في استطراده على لغة العرب وحدها ولكنه يذهب أحياناً إلى اللغات الأجنبية كما فعل في تحليل لفظه «كاليفورنية» فقد قال: وهذه اللفظة محرفة من لفظتين في اللغة الإسبانيولية معناهما: الفرن الحامي، ولا يبعد أن يكون ذلك عربياً فإن كالي: محرف عن: قالي من: قليت اللحم ونحوه، وفونيا من : الفرن».

لم أذكر ما ذكرت إلا للدلالة على فرط ميل الشدياق إلى روح اللغة، فهو مطبوع على هذا الميل، إنه إمام من أئمتها البارزين، تبحر في دقائقها وجلائلها، وتصرف في كل باب من أبوابها وأحاط بمفرداتها في

كل أفق من آفاق الحياة، فلا يكاد يفتقر إلى لفظ في تصوير حركة أو فكر، وتفنن في استعمالها كل التفنن فاقتبس من القرآن الكريم، واستخدم الألفاظ على حقيقتها لتفقهه في اللغة، فتمكن من الألفاظ التي تصور تشويه الإنسان وأشكاله وأمراضه وحركاته سواء أكانت هذه الحركات مادّية أم كانت نفسية، وأحاط بلغة اللباس والأكل والمسكن والعمل، كما أحاط بالألفاظ التي تصور صفات النساء والرجال، ومال في بعض كلامه إلى لغة العامة في أكثر النواحي، ولجأ إلى بقايا الفصاح واستعمل بعض الألفاظ الأجنبية ووضع أسماء لمسميات حديثة، عاش منها ما عاش ومات منها ما مات، وأخيراً طوع اللغة في طائفة من المواطن فاشتق من الألفاظ الأعجمية أفعالاً. وإذا توسعت في هذا الاستقصاء خفت أن أضيع في مجاهل هذا التوسع، فما عليَّ إلا الاستشهاد ببعض نماذج مما تقدمت الإشارة إليه.

لقد استضاء الشدياق بضياء القرآن الكريم فقلب النظر في آياته، واقتبس من بلاغته، وزين أكثر كلامه بما اقتبسه من هذه حتى كثر في عباراته إدماج بعض الآيات والاستعانة ببعض الألفاظ فمن ذلك قوله: يوسوس في صدور الناس... إذا جاء فاسق ... يسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا... على أبصارهم غشاوة... النفاثات في العقد... ونجد في بعض الأحيان أنه يردد آيات بأجمعها تتخلل كتاباته أو يتأدب بآداب أسلوب القرآن الكريم مثل قوله:

«جميع الرهبان والراهبات والعابدين والعابدات والزاهدين والزاهدات، والناسكين والناسكات والقانتين والقانتات» إلى آخر هذا المقطع الذي كثر فيه هذا الأسلوب.

ليس المهم أن أحصي المقاطع التي استعمل فيها الشدياق ألفاظ

القرآن وآياته واقتبس فيها من هذه الألفاظ والآيات، فهذا أمر يطول، ولكن المهم أن نعرف ذوق الشدياق في البلاغة، فحسبه أن يكون القرآن ضياءه الذي استضاء به وبحره الذي غرف منه. وما نظن أن كاتباً من الكتاب يصل كلامه إلى القلوب دون أن يتدبر القرآن ويحفظ الكثير من ألفاظه وآياته ويستشهد بها في مواضع كتاباته حتى تكون له زينة يزين بها ما يعبّر به عن فكره وذوقه وشعوره.

إلا أن الأفق الذي يدل على إحاطة الشدياق بأسرار الألفاظ إنما هو تفقهه في اللغة، فلما قال في بعض كلامه: إن اللغة عبارة عن حركات الإنسان وأفعاله وأفكاره فإنه لم يقل هذا القول عبثاً، فقد كان يؤمن بقوله ويثق بقدرته على إنفاذ هذا القول، فلسنا نمرّ في كتاباته بناحية من نواحي الحياة، دقيقها وجليها إلا رأيناه في هذه الناحية يستعين بالألفاظ التي تصوّرها على حقيقتها، فهو يصب كل لفظ في القالب الذي وضع له، فإذا عرض له مثلاً تصوير ما يشوه وجه الإنسان قال: خرم أنفه... أو شرم شفته.. أو قلع أسنانه... أو كشط وجهه... أو قوله في وصف المرأة: مخلوعة اليد، ملحوقة العين، من اللحق وهو ضرب العين بالكف خاصة أو قوله: وقد زيّن بالذلف أي صغر الأنف.

وكذلك الحال إذا أعرض له الإفصاح عن أشكال الإنسان أو أمراضه أو حركاته. ولم يكن نصيبه من لغة اللباس والأكل والمسكن والعمل وصفات النساء والرجل أقل من نصيبه من لغة الأمور التي سبق ذكرها، والأدلة على ذلك يطول ذكرها،فحسبنا الإشارة، فإنا إذا ذهبنا إلى تفقه الشدياق في اللغة ضلت بنا المذاهب، فإن رجلا طالع من كتب اللغة ما طالع وتعقب فئة من أصحابها لا تستغرب إحاطته بالألفاظ ومعانيها ولا يستغرب استعماله لهذا الألفاظ في مواضعها، إلا أن الأمر

الـذي نشـهده أن فـرط تفقهـه فـي اللغـة قـد أدى فـي بعـض الأوقـات إلـى غرابـة ألفاظـه وكأنـه كـان يشـعر بذلـك حتـى اضطـر فـي مواطـن كلامـه إلـى تفسـير غرائـب ألفاظـه، فهـو يذكـر اللفظـة الغريبـة ويلحقهـا بمعناهـا، فـالإفراط فـي التفقـه فـي اللغـة وفـي الحـرص علـى استعمال كـل لفـظ للمعنـى الخـاص بـه قـد نشـأ عنـه إحيـاء ألفـاظ غريبـة لا تعيـش فـي عصرنـا، مـن هـذا الشـكل اسـتعمال الشـدياق للمتـاعب وهـي مسـايل المـاء، أو للمنـاصع وهـي المواضـع التـي يتخلـى فيهـا للبـول، فـإن بعـض ألفاظـه الموضوعـة لمعنـى خـاص بهـا لـم تعـش كلهـا فقـد قـامت مقـام المتـاعب: مجـاري المـاء ومقـام المنـاصع: المبـاول وهلـم جـرا، فليـس كـل لفـظ موضـوع لمعنـى خـاص بـه يكتـب لـه أن يعيـش، فـإن الأسـهل يغلـب علـى الأصعـب، والأرق يغلـب علـى الأخشـن. وكيـف كـان الأمـر فإنـا إذا أحببنـا أن نتخـذ مـن تفقـه الشـدياق فـي اللغـة دليـلاً علـى قدرتـه وحدهـا دون النظـر إلـى أمـر أحسـن يتصـل بحيـاة مـا يسـتعمله لهـا لألفـاظ أو بموتهـا فإنـا نجـد أن الشـدياق قـد اجتمعـت له أسباب كثـيرة مـن هـذه القـدرة لـم تجتمـع إلا لقليـل مـن الأئمـة.

وعلى الرغم من اقتباس الشدياق من القرآن الكريم وطـول باعـه فـي اللغـة وتمكنه من أسرارها وخصائصها إنا نجده في كثير من المواضع يلجـأ إلـى لغـة العامة، لا يبالي بشيوعها في كتاباته، ولسـت أحمـل هـذا علـى تقصـير منـه فـي أساليب التعبير، فهو في هذا المعنـى ينسـحب علـى أذيـال الجـاحظ، ففـي كتـاب البخلاء طائفة من ألفاظ العامة استعملها الجاحظ ولم يبال بذلك، لقد مال الشدياق إلى بعض ألفاظ العامة في كثير من النواحي، في اللبـاس والسـلاح والمعـاملات وأشباه ذلك، إلا أنه مع لجوئه إلى ألفاظ العامة في بعض الأحوال كان يلجأ إلـى بقايا الفصاح وأعني بها التي نظنها عامة وهي فصيحة مثل الكركرة والتجريس والبلاني والفوطة والطلحية وغيرها.

وكما أحيا الشدياق طائفة من مفردات بقايا الفصاح فقد أحيا طائفة من جمل العامة على نحو ما يظهر ذلك للذي يطالع كتبه. وعلى الرغم من تنديده بالذين يستعملون في كلامهم الألفاظ الأعجمية ومن مطالبة علماء اللغة لوضع أسماء لمسميات إفرنجية فقد استعمل هو فقه الألفاظ الأعجمية مثل: البولغار.. والبرنيطة.. والبنطلون وأضراب هذه المفردات، وإذا وضع اسما في العربية لبعض مسميات إفرنجية فإن أكثر هذه الأسماء التي نبشها من المعجمات لم تعش في عصرنا، وإنما حلت محلها ألفاظ غيرها، فالكرنتينا مثلاً سماها: المعتزل، ولكن الحجر الصحي قامت مقام لفظة المعتزل، ولا أريد الإسهاب في هذا الباب فإن كثيراً من ألفاظه قد مات يومنا هذا.

وأخيراً كان يميل إلى تطويع اللغة فاشتق من ألفاظ أعجمية بعض الأفعال فقال: ملّطه أي صيّره مالطياً.. وهم ظنوا أني تنكلزت في بلادهم أي صرت: إنكليزيا، ونحن نجد مثل هذا التطويع في لغتنا ففي معجم الفيروزآبادي: سقفه أي حيره. هذا آخر ما أحببت الإشارة إليه من خصائص لغة الشدياق كاقتباسه من القرآن، وتفقهه في اللغة، وغموض بعض ألفاظه الغريبة التي أحياها ولم تعش، وميله أحياناً إلى لغة العامة وأحيائه لبقايا الفصاح، واستعماله لبعض الألفاظ الأعجمية، ووصفه طائفة من الأسماء لمسميات حديثة لم يعش أكثرها، وتطويعه للغتنا مثل اشتقاقه أفعالاً من ألفاظ أعجمية ، ولست أدري بعد هذا كله هل استطعت أن أدل على يسير من خصائص لغة الشدياق؟ فما أظن أن كاتباً من الكتاب في عصرنا الحديث تمكن من لغة العرب تمكنه، فلا يخطر على باله خاطر ولا تقع عينه على مشهد من المشاهد في كل مهب من مهاب الحياة إلا انقادت اللغة إليه فوجد لكل حركة من

الحركات ولكل فعل من الأفعال ولكل فكر من الأفكار الصورة المناسبة، وهذه هي معجزته، وقد يجوز أنه قد أسرف في التفقه في اللغة حتى أدى به هذا الإسراف إلى إبراز نوادر الألفاظ وغرائبها مما قد مات أكثره في أيامنا، وقد كان فضله أعظم لو عمد لإبراز ما يمكن استعماله من الألفاظ السهلة، الخفيفة، أما إحياء ألفاظ لا تناسب ذوق العصر فهذا عمل لا نفع فيه، على أن هذه الملاحظة لا تصرفنا عن رأينا في سمو مقام الشدياق في اللغة وعلو منزلته في معرفة مفرداتها ووفرة نصيبه من خصائصها، وهذه الملاحظة لا ترد إلا في كتاب: «الساق على الساق»، أما كتاب الرحلة وجريدة الجوائب فإنا نجد اللغة فيهما مصقولة والذوق صافياً، فقد مال فيهما إلى الإنشاء المرسل والألفاظ المأنوسة التي تصلح لكل عصر، وخلق للصحافة أسلوبها الخاص بها، فإذا رأيناه في كتابه: الساق على الساق إماماً من أئمة اللغة الراسخين فإنا نجده في كتاب الرحلة وجريدة الجوائب كاتباً في مقدمة الكتاب الخالدين الذين يناسب بيانهم كل عصر.

طرق تدريس اللغة العربية

من حسن الاتفاق أن كتاب: طرق تدريس اللغة العربية لمؤلفه الدكتور جودة الركابي قد ظهر في الوقت المناسب لظهوره، فقد استفاض الشعور بانحطاط الأدب واللغة، وبالحاجة إلى رفع شأنهما، لقد ضعفت العناية بهما على نحو ما نشهده في أكثر ثمرات القرائح ونتائج الخواطر، فهل نشأ هذا الضعف عن فساد أساليب التدريس، أم أنه نشأ عن قلة الاهتمام باللغة والجري على أصولها، وكيف كان الأمر؛ فإن كتاب: طرق تدريس اللغة العربية قد جاء في الوقت الذي تشتد فيه الحاجة إلى تحسين أساليب التدريس وإلى حمل الناشئين على العناية بلغتهم، ونعتقد أن كتاب الدكتور جودة الركابي قد يسد هذه الحاجة.

لقد مارس المؤلف صناعة التدريس سنين طويلة، فأعطته هذه الممارسة خبرة واسعة وتجربة رشيدة، فوضع كتابه: طرق تدريس اللغة العربية، وفصّل في مقدمته محتويات كتابه، وهي عبارة عما كان يلقيه على طلاب كلية التربية بجامعة دمشق. قسم المؤلف كتابه ثلاثة أقسام، يشتمل القسم الأول منها على نشأة اللغة العربية وخصائصها، وتطور منهاجها، وإعداد مدرسها ورسالته القومية، وأتى المؤلف في هذا القسم على بعض الأصول العامة في التدريس.

ويحتوي القسم الثاني على أساليب تدريس فروع اللغة العربية. أما القسم الثالث فقد حرص فيه المؤلف على بعض النشاط اللغوي والأدبي.

إني لا أرى سبيلاً إلى تلخيص ما تضمنَّه كتاب الدكتور جودة الركابي، فإذا حاولت هذا التلخيص فقد أخشى أن تضيع محاسن الكتاب، ويذهب رونق هذه الدقّائق التي فصلها، مما يدل على طول باعه في أساليب تدريس اللغة والأدب، وعلى حسن اختياره لهذا الأساليب وغيرته على هذه الصناعة الشريفة، وإذا كان لا بد من التنويه ببعض فضله فلا مندوحة لي عن الإشارة إلى رجوعه إلى أمهات كتب اللغة: كالصاحبي لابن فارس، والخصائص لابن جني، وإلى غيرهما من المصادر، فضلاً عما تقدمت الإشارة إليه من خبرته وتجربته وهذا كله يدل على جده في العمل، وعلى فرط عنايته بهذا العمل.

لقد تتبع مناهج تعليم اللغة العربية في مدارسنا ووضح ما ترمي إليه هذه المناهج من رفيع الأهداف في الخلق والفكر والنفس واللغة وغير ذلك مما لا يتسع المجال للخوض فيه. فلا غنى عن الرجوع إليه، لقد ظهرت الفائدة العظيمة في إرشاده إلى أساليب تدريس اللغة والنحو والأدب والتراجم، وفي الدقائق التي وضحها أكمل توضيح، فلم تذهب عنه شاردة في هذا المجال، فمحاسن كتابه أن مؤلفه لم يقتصر على المذاهب النظرية في الموضوع الجليل الذي عالجه، وإنما مزج خبرته وتجربته بهذه المعالجة، فظهر أثر هذا كله على كتابه الملآن من الفوائد.

لقد بلغ من تواضع المؤلف أنه لم يدّع أنَّ ما قام به إنما هو الكمال بعينه فقد ترك الباب مفتوحاً لكل مناقشة، شأن العلماء المخلصين، حتى يصل تدريس اللغة العربية إلى غايته النبيلة، ولا ريب في أن الاهتداء بكتاب الدكتور جودة الركابي قد يصل بنا إلى هذه الغاية.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٤

خواطر عن الدكتور طه حسين

قمت من النوم يوم الاثنين في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٧٣ فأصغيت إلى إذاعة «لندن» فسمعت المذيع ينعي الدكتور طه حسين؛ وقد بلغ من العمر أربعاً وثمانين سنة، فلا أبالغ إذا قلت إنني اضطربت بعض الاضطراب، فالإنسان إذا كبر وسمع ذكر الموت فلا بدّ له من أن يبلغ القلق منه مبلغاً ولو يسيراً.

سمعت نعي الدكتور طه حسين، فسألت الله تعالى أن يدخله في رحمته الواسعة، وقد كانت صحته قد ساءت من سنين، كان صوته ـــ إذا تكلّم أو حاضر أو أذاع حديثاً ـــ يأخذ بمجامع القلوب، حتّى إن إذاعة «لندن» قالت مرّة: إن صوته لا يعدله صوت من حيث الحسن، ولكن المرة الأخيرة التي سمعته فيها كان صوتاً ضعيفاً، متهدّجاً، وأذكر أنّ حديثه في الإذاعة كان موضوعه المجددين في الأدب، الذين لم يكن أسلوب تجديدهم عربياً ولا أعجمياً.

لقد جلست مع المرحوم الدكتور طه حسين بعض المجالس، فأحببت في هذا المقال الوجيز أن أدوّن جملة من الخواطر، بقيت في ذهني من تلك المجالس.

لم أسمعه في مجلس من مجالسه يقذف بلفظة نابية عن الذوق والأدب، فقد كان مهذّب الألفاظ، وكأن هذا التهذيب إنما

هو صورة تهذيب نفسه، ولقد جالست شيخاً من شيوخ الأدب في القاهرة، فكان إذا غضب على فلان قال: فلان ابن كذا... وابن كذا؛ فإنّ أشباه هذه الألفاظ غير المألوفة في المجالس الرفيعة؛ لم تجر على لسان الدكتور طه حسين.

ومن تهذيبه أنه كان في بعض الأحيان إذا استُغضب ضبط نفسه، فلا تجمح به أعصابه، فقد كنّا مرّة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في القاهرة، وكان موضوع الجلسة ترشيح الدكتور طه حسين لجائزة الآداب، فغضب المرحوم الأستاذ العقّاد أشدّ الغضب، وثار أعنف ثورة، وأخذ يثني على منزلته في الأدب، وعلى فضل كتبه، وكأنه كان يريد أن يرشّح للجائزة قبل غيره، وهو لا ريب في ذلك ــ يستحقها كما يستحقها الدكتور طه حسين، ولكن الدكتور طه قد ضبط نفسه في هذا الغضب وهذه الثورة، ولم يقل شيئاً، وإنما قال: أعطوه الجائزة قبلي وخلص.. وانتهت الجلسة بترشيح الدكتور طه حسين لجائزة الآداب.

وعلى الرغم من تهذيب الدكتور طه حسين ومن وقاره؛ كان يميل في بعض الأحيان إلى المزح، إلاّ أن مزحه كان لا يخلو من رقة، وكان لا يمازح إلا من كان يستأنس به. أذكر أني زرته بعض السنين في داره في الزمالك،وكان في جملة الزوار الأستاذ توفيق دياب، ويظهر أنه كانت بين الدكتور طه والأستاذ دياب صلة قوية، قال الأستاذ دياب: يا دكتور؛ عثرت اليوم على لفظتين عاميتين وأصلهما فصيح، فقال الدكتور طه: ما هما؟ قال الأستاذ دياب: القهقهة والهبالة فقال الدكتور طه: نأخذ

القهقهة ونترك لك الهبالة، فكان ارتياح الأستاذ توفيق دياب إلى هذه المزحة أشدّ من ارتياح أهل المجلس.

إلاّ أنّ الدكتور طه حسين، على الرغم من ميله إلى المزح في بعض الأوقات، كان يهتمّ بإظهار نفوذ أمره؛ إذا أُلقي إليه أمر من الأمور. لقد شعرت بهذا الاهتمام في الجامعة العربية، وكنّا في لجنة رئيسها الدكتور طه، فقد كان قوياً في كلامه؛ لا يريد أن يظهر عليه أثر الضعف، فإنه كان شديد الثقة بنفسه، فقد دعاني مرّة إلى الغداء في نادي محمد علي في القاهرة، فقلت له في أثناء الطعام: يا دكتور؛ إذا رجعت إلى طفولتك الأولى فهل تغير شيئاً من حياتك؟ فقال: إذا رجعت إلى طفولتي الأولى فلن أغير شيئاً من حياتي، بل أعيش العيشة نفسها التي عشتها من كل الوجوه. وهذا كلام الواثق بأسلوب حياته وعيشته، المعتقد أن ما عمله في حياته إنما هو حسن، لا يحتاج إلى شيء من التعديل والتغيير، ولا شك في أن كل واحد منّا إذا رجع إلى طفولته الأولى؛ فلا بد له من أن يغير شيئاً من أساليب حياته كان لا يرضى عنه أو كان يرى أن غيره من الأساليب إنما هو أفضل منه.

كان الدكتور طه حسين رجل سياسة، وأعني بالسياسة في هذا المقام المداراة، فقد كان رجل مداراة، فلما قدم دمشق في مهرجان أبي العلاء المعري خطب فقال في جملة خطبته ـ

على ما أذكر ـ : إن الذي يقدم دمشق؛ لا يقول في حكومتها ما قاله أبو العلاء في رجال السلطان في أيامه، إنه لا يقول: ظلموا الرعية.. واستشهد بأبيات أبي العلاء المشهورة في هذا المعنى. فلا شك في أن

قولاً مثل هذا القول؛ قد أرضى الحكومة في تلك الأيام، وإن كانت الحكومات في أي زمن من الأزمان لا تخلو من معارضين مخالفين.

كان ـ رحمه الله ـ إذا سمع معنى في شعر من الأشعار، يخفّف من مصيبته في نظره؛ يهتزّ كل الاهتزاز، فقد ألقيت في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق قصيدة قلت فيها مشيراً إلى أبي العلاء :

لم يضره فقد النواظر فالقلـ ـب بصير تفتحت أجفانه

قد يرى المرء بالفطانة ما ليـ ـس تراه على النوى أعيانه

كم بصير أعمى الجنان إذا أ مّ سبيلاً ضلّ السبيل جنانه

ولما فرغت من إنشاد هذه الأبيات؛ وقعت عيني على الدكتور طه، فرأيت أن وجهه قد احمرّ من الطرب، وأخذ يهز رأسه، فإنما يعجبه أن يقال: كل صحيح العين ليس بصحيح القلب، فقد يكون الإنسان صحيح العين ولا يكون صحيح القلب وهذا معنى صادف هوى في فؤاده، فقد حرمه الله تعالى نعمة رؤية العين؛ ولكنه لم يحرمه نعمة رؤية القلب.

وإذا أحببت أن أختم هذه الخواطر؛ فإني أختمها بحديث جرى بيني وبين الدكتور طه في فندق «سان جورج» في بيروت، قال لي ـ رحمه الله ـ : ما هي أخباركم؟ قلت له: إن الأستاذ الرئيس محمد كرد علي قد فرغ من جزء من أجزاء مذكراته الأربعة، وقد تعرض فيه لطائفة من أساتذة مصر، ولم يستثن غيرك، فسرّ كثيراً بهذا الاستثناء، وبان السرور على وجهه، ولكنه لم ينطق بشيء.

إن الكلام على الدكتور طه حسين مديد النفَس، ولكني اقتصرت على طائفة من الخواطر؛ بقيت في نفسي من مجالسه. أما منزلته الرفيعة في الأدب؛ فلا شك في أنها ستكون موضوع مباحث غير قليلة، يخوض فيها فريق من الكتاب. إن أسلوبه يشبه جدولاً يجري بين حدائق غلب،

فتلـذُ الأذن خريـره دون أن يزعجهـا الضجيـج، وتلـذُّ العيـن هـذا الصفـاء دون أن يتعبهـا التعقيـد، فيصـل الذهـن إلـى عمـق هـذا الجـدول الصـافي، فيـأخذ مـن اللالـئ المنثـورة فيـه دون شـيء مـن الجهـد.

رحـم اللـه الدكتـور طـه حسـين أوسـع الرحمـات.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق كانون الثاني ١٩٧٤

آفاق البحتري

تعودّت أن انصرف من حين إلى آخر عن ألم الحقيقة إلى لذّة الخيال، تعودّت أن أرجع إلى ديوان من دواوين العرب هرباً من وحشة الدنيا إلى أنسها، حتى تستريح الأذن بعد أن ملأ العالم التهديد بالصواريخ، وما يفضي إليه هذا التهديد من فناء العالم، فكأن الدنيا لم تخلق إلا للويلات، وكأن الأرض لم تمتدّ مذاهبها إلا لتنبسط فيها آثار الخراب.

كان نصيبي هذه المرّة الرجوع إلى ديوان البحتري، لقد عشت أياماً قلائل مع شاعر انفرد في حياته وشعره بأمور يضيق هذا المقال عن تفصيلها، عشت مع البحتري أياماً قلائل نعمت في خلالها بعبقرية خالدة على وجه الدهر، لقد ضحكت الحياة في شعره فلم نر في أضعافه رسماً من رسوم عبوسها وتجهّمها، ضحكت في كل شيء، في الطبيعة والحضارة والحب، والتغني بالوطن والافتخار بالعرب.

لقد تغنى البحتري بكل منظر من مناظر الطبيعة على نحو ما ذكرته في مقام متقدم، تغنى بالربيع وهو ينمم وشي حلتها الخضراء، وبالخريف وهو ينسج لها حلتها الصفراء، واستوفت عينه حظها من رباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود، ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد، وتملت أذنه قسمها من هدل حمامها، وحفيف ورقها، وضجيج بحرها، وزجل رعدها، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وأقحوانها، لقد ملأ نفسه من كل جزء من أجزاء الطبيعة، من ذهب شمسها، وفضة مائها، واندفاق غيثها، في غداة مخضلّة أو عشيّ مبتلّ.

إنّ هذا الأفق الذي عاش البحتري في ظلاله إنما هو الأفق الإنساني، فلم تخلق الطبيعة إلا لتبتعد بالإنسان عن متاعب الحياة ومضاجرها، وإذا بعد الإنسان عن هذه المتاعب والمضاجر صفا عقله، ونقيت روحه، ونبل ضميره، وسلم وجدانه، وما أشدّ حاجة البشرية في عصر مثل العصر الذي نعيش فيه، في عصر متربّد، متلبّدٍ، إلى صفاء العقول، ونقاوة الأرواح، ونبل الضمائر، وسلامة الوجدانات.

لم تشع في شعر البحتري ظلمة الحياة، وإنما شاع فيه ضياؤها الساطع، هذا الضياء الذي يبعث النشاط في النفوس، ويدخل السرور على القلوب، وينير للعيون مسالكها، ويهدي العقول إلى مراشدها.

ولم يقتصر البحتري في شعره على إشاعة الضياء والبهجة، ضياء الطبيعة وبهجتها، وإنما دخل بنا قصور الخلفاء في عصره، فنبش روائع الحضارة التي نبتت أصولها في تلك القصور، فألقى على هذه الحضارة رونق الشعر، فكان لا يرى حيطاناً من الزجاج في قصور بني العبَّاس إلا مثلت له هذه الحيطان لجج البحر وهي تموج على الساحل، وكان لا يرى تفويف الرّخام، إلا رأى في هذا التفويف حبك الغمام، وقد رُصفن بين ألوان متفاوتة وأشكال متباينة، وكان لا يرى الذهب الصقيل الذي لبسته السقوف إلا رأى نوراً يضيء في الظلام.

ولئن ضحكت الطبيعة والحضارة في هذا الشعر المتلألئ، لقد ضحك في شيء آخر قد يكون أصل البقاء في البشرية وأعني به الحب، فما فاته من هذا الحب سرٌّ من أسراره أو لون من ألوانه، ولا ضاقت عليه مذاهب لغته، فلسنا نرى في غزله إلاّ ألفاظاً تبرق بريق العيون، وترفّ رفيف الثغور، وترقّ رقّة الخصور.

ولقد دفعه ميله إلى الطبيعة وابتسامتها، وإلى الحضارة وروعتها،

وإلى الحب وصفائه، لقد دفعه هذا كله إلى التعلق بالحياة، فلسنا نرى في ثنايا شعره روح التشاؤم، روح هذه الحياة المظلمة الكئيبة التي تقعد بالإنسان عن كل همّةٍ، وتطرحه على هذا التراب المتعقد، دون أن يطمح ببصره إلى السماء وكواكبها، فشعره ملآن من الحياة وفرحها، مترع من الأمل وضيائه، مزدحم بالفأل ونشاطه...

ولكن هذا النعيم الذي ذاقه في ظلال الخلفاء من بني العباس لم يُنسه شيئاً أسمى من المادة، وإذا كنّا نعيش في عصرٍ اختمرت فيه الوطنية والقومية، فقد كان البحتري عندليباً من عنادل هذا النغم الرخيم، كانت له نفس تتبع أوطانها، وشعره في نزعته الوطنية نضير اللون لأن صاحبه ربيب الحضارة والحدائق والقصور، لقد فتح عينيه في صباه فرأى مدينة منبج، فتمتع من طيب هوائها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وصحة تربتها، وما نشأ وترعرع حتى سرح خياله في أهاضيب لبنان، وغوطة دمشق، وبساتين حلب، وجنّات الساجور، ونخيل العراق، فإذا حنّت ركابه إلى الشام وهو في العراق، فقد كانت تحنّ لأنها يشوقها برد الشام وريفه، ومدافع الساجور، وتقابل تلاعه وكهوفه على ضفتيه، فكم هاجه خيال زاره من هذه الأماكن ما يغيب عنه طيفه، فلست أعلم شاعراً تغنّى بمحاسن وطنه تغنّي البحتري حتى كادت هذه المحاسن تمتزج بشعره، وتلقي عليه فتنتها وسحرها:

فكم بالجزيرة من روضة تضاحك دجلة ثغبانها
تريك اليواقيت منثورة وقد جلل النَّوْر ظهرانها
غرائب تخطف لحظ العيون إذا جلّت الشمس ألوانها
إذا غرَّد الطير فيها ثنت إليك الأغانيّ ألحانها

* * *

تســـير العمـــارات أيســـارها ويعـــترض القصـــر أيمانهـــا
وتحمـــل دجلـــة حمـــل الجمـــو ح حتّـــى تنـــاطح أركانهـــا
كـــأن العـــذارى تمشّـــى بهـــا إذا هـــزَت الريـــح أفنانهـــا

وكما شغفه التعلق بوطنه فقد شغفه الولع بقومه والافتخار بمجدهم، وعلى الرغم من صلته ببعض الأعاجم، ومن أماديحه فيهم لم يغفل عن مكارم العرب الذين:

ملكوا الأرض قبل أن تملك الأر ض وقادوا في حافتيها الجنودا
وجروا قبل مولد الشيخ إبرا هيم في المكرمات شأواً بعيدا
سائل الدهر مذ عرفناه هل يعـ ـرف منّا إلا الفعال الحميدا
قد لعمري رزناه كهلاً وشيخاً ورأيناه ناشئاً ووليدا
وطوينا أيامه ولياليـ ـه على المكرمات بيضاً وسودا
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو ه ندىً لَيِّناً وباساً شديدا
وكأن الإله قال لنا في الـ ـحرب كونوا حجارةً أو حديدا

إن شاعراً يجمع شعره هذه المحاسن، إن شاعراً أتى عليه ما ينيف على ألف سنة وكأنه لا يزال يعيش بين ظهرانينا، يفكر تفكير هذا العصر، ويشعر شعور هذا الزمن، وينطق لغة هذه الأيام، لغة الحضارة المصقولة، والعاطفة الرقيقة، والذوق المصفّى والفكر المضيء، إن شاعراً هذه خصائصه لجدير بأن يكون قدوة الشعراء في مهابّ من الشعر ضل فيها من ضلّ وغوى فيها من غوى.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٤

نفرة إماميين
عن الرواية والقصة

لم يألف الرواية والقصة فريق من أئمة كتابنا في القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين، كالشدياق وكرد علي، فالأول زار «لندن» وشهد فيها التمثيل ووصف هذا التمثيل وصفاً يدل على ذوق، ثم وصف بعض الأنواع الأدبية وسماها بأسمائها الإفرنجية قال:

«ثم إن التمثيل عندهم على نوعين، الأول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب وأخذ الثأر ويقال له عندهم: تراجيدي[1]، والثاني وهو عكسه ويقال له: كوميدي[2]، وكلاهما بعدان من الأدبيات، غير أن النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمؤاربات والتجنيس».

وقد نقد بعض هذا التمثيل، فنقد طول وقت اللعب فيه، وأنه لفي نقد هذا الطول إذ خطر بباله طول الرواية فقال: وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمى: نوفل، وهو أن يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات، فيسفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والثمين.».

وكما نفر الشدياق عن الرواية فقد نفر كرد علي عن القصة وهذا رأيه فيها: «أردت غير مرّة أن أشارك في القصة، أكتب فيها أو

---

(١) أطلق على هذا النوع بعد ذلك اسم: المحزنات.

(٢) أطلق على هذا النوع بعد ذلك اسم: المضحكات.

أنقد، فما طابت نفسي للدخول في موضوع لم يأخذ منها، وليس لي يد في القصص التي نشرتها أول أمري لأنها مترجمة، وأكبر داعٍ إلى عدم عنايتي بالقصة اعتقادي أنها مختلقة».

هذان رأيان صريحان في زهد كاتبين من كبار كتّاب النهضة الحديثة في الرواية والقصة، على أنه كاد هذان النوعان الأدبيان يحلان أرفع محل في أدبنا.

أمّا نقد الشدياق لطول الرواية الإنكليزية فقد كان على حقٍ فيه لأن الرواية الإنحليزية في أيامه كانت طويلة، فهي ضعف الرواية الفرنسية، وأما نقد كرد علي للاختلاق في القصّة ففيه بعض النظر.

وقد يطول بي الكلام على الرواية واتساعها لموضوعات شتى، للتاريخ ودراسة الأهواء ووصف الأخلاق وتحليل العواطف واتساعها للطبيعة وواقع الحياة والمذهب الطبيعي والمثل الأعلى كما يطول بي الكلام على القصّة، على أن موضوعات القصة ليس من الضروري أن تكون مختلقة، فقد يكون الموضوع مرّة حادثة من الحوادث تستنبط من واقع الحياة فيجهد القاص في التفتيش عن أصولها وفي تصوّر عواقبها، ثم في التفتيش عن تأثير هذه الحادثة في رجال آخرين وفي بعض الأوقات في المجتمع نفسه، وقد يكون الموضوع مرةً قانوناً من القوانين أو عادةً من العادات أو حالة من الحالات فيجتهد القاص في تصوّر ما يمكن أن يعمله هذا القانون أو هذه العادة أو هذه الحالة في أشخاص يخترعهم ذهنه اختراعاً، وعلى كل حال الاختلاق بمعناه اللغوي ليس من خصائص القصّة وطبائعها، فالافتراء شيء وتصوُّر أمرٍ ممكن الوقوع شيء آخر، فأصحاب الروايات لا يخترعون أبطالاً فوق الواقع أو خارج الواقع ولكنهم يضعون أبطالهم في هذا الواقع.

وكيف كان الأمر فالظاهر أن بعض الأدباء يميلون في هذا العصر إلى أن يجمع المؤلف وثائق شخصية إنسانية يعرضها على القراء، فهم قد أخذوا يفضلون المذكرات على الروايات.

ولم يعن أدبنا في قديم الدهر بالرواية والقصة العناية كلها، ولا ألف هذين النوعين الألفة كلها، وإني أعتقد أن أدبنا كان أدب تركيب لا أدب تحليل، فإذا رجعنا إلى طائفة من كتبه كالعقد الفريد أو كالبيان والتبيين فإنَّا نجد في أكثر هذه الكتب عبارات وجيزة، كثيفة في معانيها، مختصرة في مبانيها تكاد تشتمل على موضوع رواية في هذا العصر، من هذه العبارات ما ينسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما تزيَّد متزيّد إلا لنقص في نفسه، ولست مستوثقاً كل الاستيثاق من ألفاظ هذه العبارة ولكن هذا هو معناها، فهذه العبارة قد تكون في عصرنا موضوع رواية من الروايات الفلسفية، فإذا أراد كاتب روائي شرحها في رواية استطاع أن يبين لنا ما يسمونه في الفلسفة: مركب النقص، أمَّا العرب فإن أذواقهم تنفر عن مثل هذا الشرح وهذا التطويل، فقد تغنيهم الإشارة أو اللمح عن كل ذلك، وقد أعربوا عن هذا الغناء في كثير من مواضع كتبهم الأدبية، وليس معنى هذا أن أدبنا يخلو من التحليل، فإنَّا إذا رجعنا إلى بعضه وجدنا فيه من التحليل المبني على التجربة والعيان ما يدهش العقل، من ذلك تحليل الجاحظ للحسد في بعض رسائله، فقد فطن إلى دقائق من الحسد لا يكاد يفطن إليها إلا الراسخون في علم النفس، وكما لم يخلُ هذا الأدب من التحليل فكذلك لم يخلُ من القصص، ومع هذا كله فالتركيب غالب على أدبنا أكثر من التحليل.

إلاّ أن الذي أعجب منه بعد هذه المقدمة وبعد هذا الاستطراد نفرة

الشدياق عن الرواية وقد اجتمعت له خصائصها وأسرارها، فالروايات في معظم الأحوال تشتمل على كثير من الوصف والتصوير اشتمالها على تحليل فكر من الأفكار أو مذهب من المذاهب، فهي لا تستغني عن الوصف ولا عن التصوير، وإذا قرأنا رواية لكاتب راسخ في فن الروايات فإن أول ما يبلغ منّا من هذه الرواية إنما هو الوصف والتصوير.

لقد وصف الشدياق في كتبه أموراً كثيرة وصوَّر أموراً كثيرة، لقد وصف الشوارع والآثار والأبنية والمآكل والثياب والسحن والأخلاق والحياة الاجتماعية، ووصف الفنون الرفيعة كالموسيقى والتمثيل، ووصف بعض مخترعات عصره كالبرق وسمّاه في رحلته باسمه الإفرنجي: التلغراف، وفي هذا الوصف كله ظهرت شخصيته وظهرت عبقريته، فإن له قدرة على الوصف غريبة، فعينه شديدة البصر وأنفه شديد الشم وأذنه شديدة السمع ولسانه شديد الذوق.

نجد في بعض وصفه لعادات أهل مالطة وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وصفاً بسيطاً مجرداً من كل زينة، إلا أن ألفاظه وحدها كافية أن ترينا الأشياء الموصوفة بسبب الصلة القوية بين الاسم والمسمى، بين اللفظ ومعناه، كما نجده يميل في وصفه إلى بعض ألفاظ العامة المتعلقة بالثياب كالبرنيطة والطربوش والصدرية، والكفوف، وشأنه في هذه المسامحة في اللغة شأن أكابر الكتاب في القديم كالجاحظ الذي نرى في بعض كتاباته ألفاظ العامة لقوة تأثيرها في الأذهان.

وكما قدر الشدياق على الوصف فقد قدر على التصوير فصوّر فضول أهل مالطة وتلهيهم بالإسفاف من القول والعمل تصويراً يطول الكلام على خصائصه وعلى خصائص جمله، فمرة تكون هذه الجمل

سريعة ومرة تكون بطيئة، وأريد بالسرعة في هذا المقام تصوير الكاتب لفكرته دون التعريج على التفاصيل والدقة غالبة على الأسلوبين، أسلوب الوصف وأسلوب التصوير.

وكما عجبت من نفرة الشدياق في الرواية وقد تهيأت له أسباب فنها فكذلك عجبت من نفرة كرد علي عن القصَّة وقد اجتمعت له بعض أسبابها، لقد روى في مذكراته قصة: قاضي دومة، وهي وإن كانت بضعة سطور إلاّ أنَّا نجد لها عرضاً وعقدة وخاتمة، وقد عرضت حوادثها في أوضح معرض وتسلسلت تسلسلاً منطقياً زاد في وضوحها، واشتبكت فيها الحوادث اشتباكاً أخاذاً، وأسلوب هذه القصة واضح، فكل لفظ مناسب لمعناه، وفي بعض القصَّة حوار، ولا شك في أن الحوار ينفخ في القصَّة روحاً وحياةً.

فلماذا نفر هذان الكاتبان الإمامان عن الرواية والقصَّة ولم تغب عنهما أسرار فنِهما.

مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق

الحياة
في كتاب الأغاني

إذا كنا ننظر إلى كتاب الأغاني من ناحية ما قاله صاحبه في مقدمته من أنه جمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية، قديمها وحديثها، فإنا نظلم أبا الفرج لأنه جمع فيه ما هو أجل قدراً من ذلك؛ وإذا كنّا ننظر إلى هذا الكتاب العظيم من ناحية ما جمعه صاحبه فيه من آثار وأخبار، وسير وأشعارٍ متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام، فإنا نظلم أنفسنا لأن وراء هذا كله حياة اجتماعية كامنة لا ينبغي لنا أن نغفل عنها.

إن الذين قالوا: لقد وقع الاتفاق على أن كتاب الأغاني لم يعمل في بابه مثله لم ينحرفوا عن الحق في قولهم، ولست في حاجةٍ إلى ذكر ما قاله القدماء في قيمة هذا الكتاب أمثال الصاحب بن عبّاد وعضد الدولة والوزير المهلبي وعبد العزيز بن يوسف والثعالبى وياقوت وابن خلدون.

أما الأغاني التي جمعها أبو الفرج، وأما المصطلحات التي استعملها أمثال قوله: الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثاني وغير ذلك من هذه المصطلحات، أما هذا كله فقد ينفرد بمعرفته رجال الموسيقى، ولست

منهم في شيء، والذي سمعته أنهم في عصرنا قد أحاط علمهم بكل هذه الرموز وأصبحوا يعرفون ما يراد بالثقيل الأول والثقيل الثاني وغير ذلك، فهذا لا يعنينا أمره في هذا المقال، وكما أنني لا أُعنى بالأغاني ومصطلحاتها في كتاب الأغاني فكذلك لا أُعنى في هذا المقال بالأدب المستفيض في هذا الكتاب، إنّ هذا الأدب إنما هو كنز لا يفنى مع الإنفاق، وهذا التعبير اقتبسته من ابن المقفع لأنه وحده يليق بالإفصاح عن منزلة كتاب الأغاني؛ فإذا كنّا لا نقرأ هذا الكتاب إلا للانتفاع بأدبه فقد يتم لنا من هذا الانتفاع شيء كثير نصفي به ذوقنا وننمي به معرفتنا ونقف على طبقات كثيرة من الشعر على اختلاف عصوره وأطواره. ولكن كتاب الأغاني ينبغي لنا أن نقرأه لأسباب ثانية.

وسنطلع في هذه القراءة على فوائد لا تقل عن الفوائد الأدبية، سنتمتع بالوقوف على الحياة بحذافيرها في بعض المواضي من عصورنا، لقد ذهبت عنّا أخبار كثيرة من هذه الحياة، فإذا افتقرنا إلى شيء فإنا نفتقر إلى الإحاطة بمظاهر تلك الحياة، فلا نعرف مثلاً أين كان تدريس الطلاب ولا كيف كانت معاملة المعلمين للطلاب، ولا كيف كانت مجالس الطلاب، وأساليب دراستهم وطبيعة هزلهم. غير أن الحياة لا تقتصر على حياة الطلاب وحدهم فإنها تمتد إلى آفاقٍ أبعد، إلى اللهو والشراب والزينة، إلى داخل الدور وما تشتمل عليه هذه الدور من الأواني والفرش والثياب.

هذا بعض ما نحتاج إليه من معرفة الحياة الاجتماعية في تاريخنا، ولا سيما حياة العامة، فإن أدبنا في القديم قد حُبس على الخاصة وأهمل أكثره معرفة أمور العامّة.

وفي كتاب الأغاني أشياء غير قليلة من هذه المعرفة، غير أن حياة

الخاصة، ولا سيما حياة الخلفاء، كانت أظهر في كتاب الأغاني فقد تقف فيه على أمورٍ كثيرة من قصور الخلفاء وفن البناء في الحجاز والشام والعراق.

ماذا أحصي من مظاهر الحياة الاجتماعية في كتاب الأغاني، أفلا يهمنا أن نعرف أندية تلك العصور ومطاعمها وخاناتها وقصّاصها وأفراحها وأحزانها؟ وأما المرأة وحياتها فقد كانت سراً من الأسرار، إلا أن أبا الفرج قد كشف لنا عن هذا السر بكلامه على حرية المرأة في الزواج وتفكيرها في حرية الطلاق، وتحدثها إلى الرجال وحجابها وسفورها، ونحن في أشد الحاجة إلى مثل هذا الكشف ولو كان قليلاً.

هذا بعض ما نهتدي إليه في كتاب الأغاني، دع عنك أشياء ثانية تتصل بالغناء في القصور وبمواكب الحج وغير ذلك، والذي نستغربه كل الاستغراب إنما هو أمر اللهو والتبذير، وحسبنا بيتان قيلا في التبذير وردا في كتاب الأغاني

وحلةٍ تنشر ثمَّ تُطوى　　　وطيلسان يُشترى فيُغلى

لعبدِ عبدٍ أو لمولى مولى　　　يا ويح بيت المال ماذا يلقى

ليس هذا كل ما يحتوي عليه كتاب الأغاني الخالد على تعاقب العصور ولكني أكتفي بالإشارة إلى بعض محتوياته حتى نعلم أن هذا الكتاب ليس مجرد ذكر الأغاني العربية، وذكر آثار وأخبار وسيرٍ وأشعار، ولكنه صورة حياةٍ اجتماعية بحذافيرها، نمرّ في تضاعيف سطوره بطائفةٍ من أسرار هذه الحياة مما لا نمرً في غيره بأشباهها، فإذا نحن جمعنا هذه الآثار والأخبار والسير، ونسقناها في كتاب خاص حصلت لنا بذلك صورة الحياة الاجتماعية في بعض أيامها.

قد نستغرب هذا الأمر فنقول: لماذا لم ينسق أبو الفرج كتابه على

الشكل الذي يصوّر لنا الحياة أوضح تصوير؟! إنه قد فطن إلى هذا التنسيق ولم يذهب عنه، ولكنه اعتقد أن في طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مستجدّ، وكل مُنْتَقَلٍ إليه أشهى إلى النفس من المُنْتَقَل منه، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود.

غير أنا في هذا العصر نميل إلى التنسيق وإلى الاختصاص، فإذا تفرغنا لموضوع فإنا نحب أن نتفرغ له بشيء كثير من التبويب والتنسيق، وهكذا نجد أن أساليب التأليف تختلف من عصرٍ إلى عصر وأن الأذواق تتباين من دهر إلى دهر. وكيف كان الأمر فإذا وجدنا في كتاب الأغاني ذخيرة لأدبنا وصورة لكثير من أشعارنا على اختلاف أيامها نصفّي بها أذواقنا في الشعر، ومظهراً من مظاهر النقد الأدبي نهتدي به إلى المحاسن والمساوئ، إذا وجدنا هذا كله فقد آن لنا أن نجد في كتاب الأغاني صورة حياتنا الاجتماعية في كثير من أنماطها، وأن نملأ قلوبنا وعقولنا من هذه الصورة فنخرج من هذا كله بنتيجتين:

علوّ منزلة أبي الفرج في الأدب والذوق.

وعلوّ منزلته في تصوير الحياة.

وهذا ما يدخله في جنّات الخالدين.

مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق ١٩٧٦